وقضاء حوائج المحتاجين، والسعي في صلاح المسلمين ما لا يقدر على القيام به غيره. وكم تصل إليَّ منه رسائل ونصائح فيما يتعلق بشأن الدولة. ويأخذ عليّ أنه لا يحلُّ السكوت. وله رغبة في المباحثات العلمية شديدة، بحيث أنه لا يعرض البحث في مسألة من المسائل إلّا وفحص عنه وسأل وراجع. وكثيراً ما تَفِدُ عليّ منه سؤالات أجيب عنها برسائل، كما يحكي ذلك مجموع رسائلي. مع أنه، نفع اللَّه به، إذ ذاك عالي السن قد قارب السبعين، وأنا في نحو الثلاثين. وهذا أعظم دليل على تواضعه. ثم ما زال هذا دأبه إلى الآن، وهو صديقي وحبيبي، يدعوني إلى بيته المرَّة بعد المرَّة. وله في المكارم مسلك لا يقدر عليه غيره. وفي حسن الأخلاق وتفويض الأمور إلى المُهيمن الخلَّاق أمر عجيب. وقد أعانه اللَّه على برِّ والده، والقيام بواجب حقِّه، والمشي على ما يريده. وكان والده رحمه اللَّه رئيس آل إسحاق والمُتولِّي لأُمورهم بعد أن دعا إلى نفسه وبايعه الناس قاطبةً، ثم اختار اللَّه له التخلص من ذلك فما زال على رئاسة أهل بيته حتى مات. ثم قام ولده هذا مقامه أياماً فلم تطب نفس أخيه الأكبر السيد العلّامة أحمد بن مُحمَّد فخرج من صنعاء مغاضباً للإمام المهدي رحمه اللَّه. وسيأتي شرح ذلك في ترجمته إن شاء اللَّه تعالى. وحاصله أنه صار مكان والده، ورغب صاحب الترجمة عن الرئاسة الدنيوية فاستبدل بالخيل والخَوَل الزهد والتقشف، وترك زيّ أبناء جنسه من بيت الخلافة والمملكة، ومع هذا فله جلالة في القلوب ونبالة في النفوس وضخامة زائدة عند جميع الناس. إذا مرَّ به راكب من آل الإمام أو من أكابر الوزراء والأمراء والقضاة ترجَّل له وسلَّم عليه. وما رأيت مولانا الخليفة يجلُّ أحداً كإجلاله له، وهو حقيقٌ بذاك. وهو الآن حيٌّ ينتفع به الناس[1].

١٥

(إبراهيم بن مُحمَّد بن أبي بَكْر بن عليّ ابن مَسْعُود بن رَضْوَان المقدسي ثم القاهري الشافعي[2] أخو الكمال مُحمَّد الآتي ذكره)

ولد ليلة الثلاثاء ثامن عشر ذي القعدة سنة ٨٣٦ ستٍّ وثلاثين وثمانمائة ببيت المقدس، ونشأ به. فحفظ القرآن وهو ابن سبعٍ، وتلاه تجويداً لابن كثيرٍ، وأبي

(١) توفي صاحب الترجمة في الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٢٤١هـ (نيل الوطر في تراجم نبلاء القرن الثالث عشر).

(٢) ترجمته في: شذرات الذهب: ٨/ ١١٨ ـ ١٢٠؛ الكواكب السائرة: ١/ ١٠٢؛ الضوء اللامع: ١/ ١٣٤؛ معجم المؤلفين: ١/ ٨٨، الأعلام: ١/ ٦٦.

عمرو. وأخذ عن (سراج الرومي) في العربية والأصول والمنطق. وعن (يعقوب الرومي) في العربية والمعاني والبيان، بل سمع عليهما كثيراً من فقه الحنفية. وسمع على (التقي القَلْقَشنْديّ المَقْدِسيّ) و(الزين مَاهر) وآخرين، وأجاز له خلق، ثم لما قدم القاهرة قرأ على الإمامين الأقصراني في شرح العقائد، والجلال المحلي في شرحه لجمع الجوامع، وقرأ على جماعة كثيرة في فنون متعددة. ثم حجّ سنة ٨٥٣ ثلاثٍ وخمسين وثمانمائة، وقرأ في مكَّة على (التقيّ بن فَهْد) و(أبي الفَتْح المراغي) و(المُحبّ الطَّبري) وجماعة. وبرع في الفنون، وأذن له غير واحد بالإقراء والإفتاء. وصنّف التصانيف، منها «شرح الحاوي» في مجلد ضخم، ومنها «شرح قواعد الإعراب» في نحو عشرة كراريس، و«شرح العقائد» لابن دقيق العيد[1]، و«شرح المنهاج الفرعي» و«نظم النخبة» ومختصرات كثيرة «كتهذيب المنطق» للتفتازاني، و«الورقات» لإمام الحرمين، و«شذور الذهب» و«عقائد النسفي». واختصر «الرسالة القشيرية»، وله مصنفات غير هذه. ودرَّس في عدة فنون، وأخذ عنه الطلبة، واستقر في تدريس التفسير بجامع ابن طُولون وفي غيره من الجوامع والمدارس. وولي قضاء الشافعية بالقاهرة في ذي الحجة سنة ٩٠٦، عوض عبدالقادر بن النقيب. واستمر إلى ثالث ربيع الأول سنة ٩١٠ عشرٍ وتسعمائة، فعزل بقاضي الشام الشهابي. وصار رئيس مصر وعالمها، وعليه المدار في الفتيا. ومن صلابته في الدين أنه اتفق للقضاة محنة مع الأشرف المذكور بسبب إقرار الزانيين اللذين أراد الأشرف رجمهما قاصداً لإحياء هذه السنّة. فصمَّم صاحب الترجمة على عدم موافقته في ذلك. فعزل القضاة الأربعة وشنق الزانيين، فوقف صاحب الترجمة عليهما وقال: أشهد بين يدي اللَّه بظلمهما. وأن قاتلهما يُقتل بهما، فبلغ الأشرف ذلك فعزله عن مشيخة مدرسته، ثم بلغه اللَّه إلى أن كان قتل الملك في حياته وانقراض دولته، فردّ إليه معلومهما من أول ولايته لهما. وعدّ ذلك من شهامته وكمال دينه. فعظم به عند الخاص والعام مع لزوم منزله وتردُّد الناس إليه للانتفاع به في العلوم الشرعية والعقلية، حتى (مات) في يوم الجمعة ثاني شهر المحرم سنة ٩٢٣ ثلاثٍ وعشرين وتسعمائة. وصلّى عليه الخليفة المتوكل على اللَّه العباسي صاحب مصر عقب صلاة الجمعة، ودفن بتربته التي أعدّها في ساباط. وله نظم فمنه من قصيدة: [من الطويل]

دُموعي قَدْ نَمَّتْ بِسرٍّ غَرامي ... وَباحَ بِوَجْدي لِلوُشاةِ سَقامي[2]

(١) هو أبو الفتح، تقي الدين، محمد بن علي بن وهب القشيري المنفلوطي القوصي، المعروف بابن دقيق العيد: حافظٌ، محدّثٌ، فقيه، لغوي، أديب. توفي سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م. (شذرات الذهب: ٦/ ٥؛ تاريخ الأدب العربي، فروخ: ٣/ ٦٩٥).

(٢) نَمَّ الحديث ونحوه: سَعَى به وأذاعه.

فَأضْحَى حَديثي بالصبابةِ مُسنداً بِمُرْسلِ دَمْعي من جُفون دَوَامِ

ومن أخرى: [من البسيط]

ما خِلْتُ بَرْقاً بأرجاءِ الشّآم بَدا إلّا تَنفَّسْتُ مِنْ أشواقي الصُّعدا

وَلا شَمَمْتُ عَبيراً مِنْ نَسِيمكُم إلَّا قَضيْتُ بأنْ أقْضي بهِ كَمَدا[1]

١٦

(إبراهيم بن مُحمَّد
ابن خَليل البُرهان الطّرابلسيّ الأصل الشامي المولد والدار الشافعيّ)[2]

ولد في ثاني عشر رجب سنة ٧٥٣ ثلاثٍ وخمسين وسبعمائة بالجَلُّوم بفتح الجيم وتشديد اللام المضمومة. ومات أبوه وهو صغير فكفلته أمه، وانتقلت به إلى دمشق، فحفظ بها بعض القرآن، ثم رجعت به إلى (حلب) فنشأ بها وأدخلته مكتب الأيتام فأكمل به حفظه، وصلَّى به على العادة التراويح في رمضان، وتلا تجويداً على الحسن السايس المصري، وعلى الشّهاب بن أبي الرضيّ، والحرّاني. وقرأ في الفقه على ابن العجمي، وجماعة كالبَلْقيني، وابن المُلقِّن، وفي اللغة على مَجْد الدين صَاحب القاموس، وفي الحديث على الزين العراقي، والبلقيني، وابن الملقن أيضاً، وجماعة كثيرة. وارتحل إلى مصر مرتين لقي بها جماعة من أعيان العلماء، وإلى دمشق، وإسكندرية، وبيت المقدس، وغزة، والرملة، ونابلس، وحماة، وحمص، وطرابلس، وبعلبك. وَرُوي عنه أنه قال: مشايخي في الحديث نحو المائتين، ومن رويت عنه شيئاً من الشعر دون الحديث بضع وثلاثون، وفي العلوم غير الحديث نحو الثلاثين. وقد جمع الكلّ النجم بن فهد في مجلد ضخم، وكذلك الحافظ ابن حَجَر. واستقر بحلب. ولما هجمها تيمورلنك، طلع بكتبه إلى القلعة، فلما دخل البلد، وسلبوا الناس، كان فيمن سلب حتى لم يبق عليه شيء. ثم أسروه وبقي معهم إلى أن رحلوا إلى دمشق، فأطلق ورجع إلى بلده، فلم يجد أحداً من أهله وأولاده. قال: فبقيت قليلاً، ثم توجهت إلى القرى التي حول حلب مع جماعة فلم أزل هنالك إلى أن رجع الطغاة جهة بلادهم، فدخلت بيتي فعادت إليَّ أمتي نرجس، ولقيت زوجتي وأولادي منها. وصعدت حينئذٍ القلعة فوجدت أكثر كتبي فأخذتها ورجعت. وقد اجتهد المترجم له في الحديث اجتهاداً كبيراً، وسمع العالي والنازل، وقرأ البخاري

(١) أقضي به: أموت. الكمد: الحزن الشديد المكتوم.

(٢) ترجمته في: الضوء اللامع: ١/ ١٣٨؛ شذرات الذهب: ٧/ ٢٣٨؛ كشف الظنون: ١٣٠؛ معجم المؤلفين: ١/ ٩٣؛ الأعلام: ١/ ٦٥.